

نبح

الأمل (*)

للكتائب التوكيدي: حكمت دندار

لقد فعل الشيخ إسماعيل ما فعل مرضاة الله..، فعل هذا من أجل القرية وأهل القرية. كان عوناً للجميع كان يدأ لمن لا يد له، ولساناً معبراً لكل أبكم، كان يفعل الواجب، تحمل هموم الجميع، كان يعرف كيف يعالج غرور كل متكبر فيهم، حينما كان الشيخ إسماعيل بينهم لم يكن بيدراً أحدهم يظل في العراء بلا نقل، ولم يكن بينهم عامل يضيع أجره ما دام الشيخ إسماعيل فيهم.

توضاً الشيخ إسماعيل من مياه أحد الينابيع وصلى حيث كانوا واقفين. جلس ثلاثتهم وقد ولوا وجوههم شطر الوادي، وهبت نسمة ندية على المكان، حيث كانت القرية تمتد تحت ناظرهم بأسقفها الحمراء المتناثرة بين أشجار الصنوبر، وقد بدأ النهر من بعيد، يظهر تارة، ويختفي أخرى بين الأشجار، ثم ها هو الطريق المفضي إلى القصب، كان الصمت يلف الأرجاء، كل شيء صامت، كل شيء ينتظر، لو صدر أي صوت في هذا الصمت الرهيب فربما شق الأرض، أو حرك الجبال من مكانها، وهذا الطريق التوى كأنه يتجه إلى السماء. كل شيء هنا؛ الأشجار والحشرات وكل شيء كأنه قد اجتمع في هذا المكان ليشكل خلفية لحدث كبير يوشك أن يحدث.

فجأة شعر عمر بإحساس غريب بالوحدة، لأول مرة يشعر بمثل هذه الوحدة، منذ نقل والده إلى القرية، أما الحافظ يوسف فقد كان يشعر بضيق شديد، هناك شيء ثقيل جائم على صدره، يريد أن يشق صدره، ويخرج هذا الشيء بأصابعه، ولكنه زفر قائلاً:

- الله ...

أما الشيخ إسماعيل فقد تعلق بصره بنحلة حطت على إحدى الزهور.

- قل لي يا ولدي لم تجد وتتعب هذه النحلة؟

- أليس من أجل الناس يا أبتى؟

- والأشجار؟ تراها لماذا حملت على أغصانها الآلاف من حبات الثمار وهي لا تفيد منها شيئاً؟ هه لماذا يا حافظ يا بني؟

- وهي أيضاً من أجلنا يا سيدي.

قال الشيخ إسماعيل:

- يا أولادي كل هذه الأشياء: الأرض، والأشجار، والحيوانات؛ لماذا تقدم لنا بكل همة ونشاط ما تقدمه من نبات ولحوم وفاكهة وعسل وخلافه؟

توقف الشيخ هنيهة، بينما أحنى الحافظ يوسف وقرة عمر رأسيهما منصتين في خشوع.

- لأنه يا أولادي كل ما في هذه الدنيا يسبح لله تعالى؛ طمعاً في نيل رضاه ولقائه، ولكن المخلوق الوحيد الذي يحمل الأمانة هو الإنسان. وهذه مهمته في هذه الدنيا، ولو لم نؤد هذه المهمة نكون قد خنأ الأمانة، حذار أن تخونوا الأمانة. ولا

ولكنهم اقتادوه يوماً كما يقتادون المجرمين، قالوا: إنه خائن ورجعي. وقالوا أيضاً إنه خطط لاغتيال مصطفى كمال (أتاتورك). اقتادوه ذات ليلة بين حراب البنادق واختفوا في جنح الظلام.

لقد مر عام كأنه الدهر.

ثم جاء خبر إلى القرية، وأخذوا ابنه قرة عمر ثم عاد بأبيه، أبوه الذي ذهب بين اثنين من رجال الدرك «الجاندارمه» مرفوع الرأس وكله هيبة، عاد به محمولاً في حشية، هزيراً شاحب الوجه، لونه كالشمعة الصفراء. وردد الشيخ في بيته ثلاثة أسابيع، وفي صبيحة الأسبوع الرابع دب في جسده نشاط مفاجئ:

- يا ولدي.

طوال هذه الفترة لم يكن قرة عمر يريح رأس أبيه، فأنحنى إليه وبلهفة:

- نعم يا والدي.

- اصعد بي إلى (بشبينار).

- ولكن يا والدي .. قالها وكأنه يعترض.

- إلى شجرة الصنوبر الكبيرة، قالها الشيخ وقد اعتدل في جلسته.

رفعوه وألبسوه ثيابه وساروا به، وقد أتكا على ذراع ابنه عمر من جانب، والحافظ يوسف من جانب آخر، وسار الركب متاقلاً بين الأشجار، تارة يمشون، وأخرى يستريحون، إلى أن وصلوا ساحة مستوية من الأرض على القمة، فشنخص الشيخ إسماعيل بصره متفقداً شجرة الصنوبر الكبيرة، فقال عمر متلعثماً وكأنه أضاع شيئاً ثميناً:

- إنها العاصفة؛ في الشتاء الماضي ...

- ها .. يعني تلك الشجرة التي عمرت مئات السنين قد هوت وضاعت في ليلة واحدة. لكم اقتلعت العواصف أسقف المنازل من فوق رؤوسنا، ولم تتأثر الشجرة الكبيرة. لا بد أن شيئاً نخرها من الداخل يا ولدي.

أتكا بيده على كتف الحافظ يوسف، وأردف مبتسماً بمرارة:

- ها هي العواصف الكبيرة تطيح بالأشجار الكبيرة.

(*) عن مجلة الأدب الإسلامي التي يصدرها مكتب الرابطة في استانبول.

Islami Edebiyat. (7-8-9) 1993. 5. 21.

- إنهم لا يخطرون، إنهم يهجمون مباشرة دون إخطار، وفي رأيي لو كانوا متأكدين من شيء لهجموا.

نهض الجميع وفي خروجهم من صحن الجامع لحق بهم طويال رضا وتساءل في قلق:

- ماذا هناك؟

فربت قره عمر على كتفه مبتسماً:

- لا شيء البتة.

ولم يكذب يتتصف الليل حتى طرق باب قره عمر، فنهض ووضع المعطف على كتفيه متجهاً إلى الباب:

- من بالباب؟ .. وفتح الباب حينما سمع صوت العمدة في الخارج، كان هناك بضعة أشخاص مع العمدة، وكانت زوج الحافظ يوسف معهم، فقالوا إن الحافظ يوسف خرج يحطّب من الغابة منذ الصباح، ولم يعد حتى الآن، فجاءوا يسألون عنه.

- انتظروا دقيقة واحدة ... قالها قره عمر وهو يدخل المنزل، ثم عاد وقد ارتدى ملابسه، وأمسك ببندقته، وأخبر أهل منزله بما حدث، ثم انطلق خارجاً.

أعدت المشاعل، وسار الجمع في الظلام الدامس، وهم يسقطون وينهضون في الطرق الموحلة، التي يمكن أن يكون قد سلكها الحافظ يوسف، ثم بدأوا يصعدون إلى الجبل.

سأل قره عمر:

- هل دار الحافظ خاوية الآن؟

أجاب العمدة:

لا، فأهلي هناك الآن.

لم يكن لدى أي أحد فكرة عما يمكن أن يكون قد أصاب الحافظ يوسف، ولا إلى أين ذهب، وأخيراً رأوا في داخل الغابة حمار الحافظ يوسف، وقد ربط إلى إحدى الصنوبرات. فأخذوا ينادون بصوت مرتفع، وأطلق قره عمر بضعة طلقات في الهواء، ولا من يجيب، أخذوا يبحثون يمنة ويسرة ولا أثر، إلى أن يشسوا من البحث فعادوا إلى القرية مع تباشير الصباح.

وعادوا مهمومين، مكرويين، وقد تلطخت ثيابهم بالوحل، وقبل أن يدخلوا القرية أرسلوا واحداً إلى القصة، للبحث هناك، ثم تفرقوا إلى دورهم.

وبعد ثلاث أو أربع ساعات اجتمعوا، وقرروا أن يرسلوا خبراً إلى القرى المجاورة، وبينما هم على وشك العودة إلى منازلهم، إذا بالرسول الذي كان في القصة يعود على جواده، بنفس السرعة التي ذهب بها.

وعرفوا أن الحافظ يوسف موقوف في القصة، فقد أخذته الشرطة.

وبعد أسبوع عاد الحافظ يوسف، فاجتمعوا للسلام عليه ومواساته، وكان في

تسرفوا فالإسراف حرام.

نهض الجميع، وعادوا إلى البيت، فارتمى الشيخ إسماعيل على فراشه، عندئذ فهم الجميع أن ساعة الفراق قد حانت، وأن النجم قد هوى من السماء.

نعم الأيام القادمة ستكون حالكة السواد.

مئات من السنين مضت في هدوء ودعة، ولت هذه الأيام لتأتي أيام تسيل ظلماً على رؤوس الناس؛ أيام يصمت فيها الأذان، وتلقى الكتب المكتوبة بالحروف العربية إلى النار، تلك الكتب التي عاش الناس معها وبها مئات السنين. جاءت أيام حرمنا فيها ذكر اسم الجلالة، وأصبحت الدولة عبارة عن اثنين: رجال الشرطة وجامعو الضرائب.

لقد دفنت الكتب.

بدأ أصحاب الشيخ إسماعيل يفكرون في حال الأطفال؛ هذه البراعم الصغيرة، التي بدأت تنمو مثل الفسائل، دون أن تحشو على ركبها لتقرأ «ألف باء» أو «سبحانك»، نعم لم تعد هذه الكلمات تتردد على ألسنتهم ولكن كان عبرها يفوح من صدورهم.

اجتمع عقلاء القرية وقرروا أمراً بينهم ثم طرّقوا باب عمر، وتحدثوا في الأمر فأجابهم عمر «إنها وظيفتي».

- رجال الشرطة قادمون ... رجال الشرطة قادمون. قالها أحد الضيعة المراقبين، وهو يلج إلى الداخل لاهثاً، وقد اتسعت حدقتاه هلعاً. وكان هذا المراقب واحداً من التلاميذ، الذين يتعلمون القرآن لدى عمر، كان قد اتخذ موقعه على الطريق المفضي إلى المدينة؛ ليخطر الجمع عند رؤيته أي غريب قادم إلى القرية.

صاح عمر وهو يجمع المصاحف من أيدي الأطفال بسرعة:

- هيا أسرعوا. تفرقوا. وبسرعة قفز الأطفال من النافذة الخلفية، وغابوا عن الأنظار.

جاءت الشرطة قاصدة منزل العمدة، أما عمر فقد أخفى المصاحف تحت أكبر الصناديق في الدار. ثم خرج يستطلع الأنباء. تحدث رجال الشرطة قليلاً مع العمدة ثم انصرفوا ذاهبين.. سار العمدة تجاه الجامع وقد اعتراه الضيق، وبدت عليه الكآبة، حتى وصل إلى صحن الجامع، فجلس على حافة أحد أحجار الميضأة، فسار إليه عمر مباشرة وفي هذه الأثناء تجمع رهط من القرية؛ الغازي عم حسن، والحافظ يوسف، وقد ارتسمت على وجوههم علامات التساؤل، فلم ينتظر العمدة وأردف قائلاً:

- لقد عرفوا أننا نعلم أطفال القرية القرآن، لقد أخطروهم.

فقال عمر:

ارتضى الشيخ إسماعيل على فراشه فأحس الجميع أن نجماً قد هوى

- ها ... زجبر «الجاويش» وهو يفرك يديه:

- عصيان سافر على الدولة، ها.

- ما هذا يا ولد، قالها وهو يركل عمر برجليه، في هذه الأثناء، ترك الجنديان عمر فوق أرضاً، وبدأ يصفعان الطفلين، لإسكاتهما عن الصراخ. بدأ أهل القرية يتحلقون حول المكان، ويتفرجون على ما يدور.

شق «الجاويش» الجمع وسأل:

- من العمدة هنا؟ فأمسك الشخص الذي قال «أنا» وساقه كالحيوان ودفع به أمام عمر.

- ها، تُعطي دروساً دينية في قريتك، ولا تخبر الحكومة؟! قالها «الجاويش» وأنزل صفعة على وجه العمدة، ثم ركل المصاحف بقدمه، فجفل الجمع، وكأنه قد كسوى صدورهم بسبخ من الحديد الملتهب، وتمادى «الجاويش»، فأمسك بعصاه، وبدأ يقلب بها المصاحف في الوحل!!

وشرع يرفسها بقدميه:

- لن تقرأوها، لن تقرأوها.

أسودت الدنيا أمام عيني عمر، وأحس بشيء يعتصر قلبه، كان الجمع قد بدأ يتلاشى من الساحة، وفجأة وقعت عينا عمر على شيء في قاع الصندوق المقلوب، إنه المنجل الذي حصده به أبوه رأس أحد الأرمن أثناء الاحتلال، وقد احتفظ به على سبيل الذكرى، وفي قفزة من عمر من على الأرض، كان المنجل في يده، وفي نفس الوقت كانت رأس «الجاويش» قد غاصت في الوحل على بعد ثلاثة أو أربعة أمتار،

وعلا صوت عمر مكبراً مهللاً.

وفي نفس الوقت كانت كل البنادق مصوبة إلى صدر عمر، وانطلقت، فتفجرت الدماء من كل موضع في جسده، وسقط على الأرض.

بدأت النسوة اللاتي في الميدان يبكين ويلطمن خدودهن، فهرع الرجال عاندين إلى مكان الحادث وقد تخلوا عن خوفهم، وعندما اقتربوا، صوب إليهم الجنود البنادق، فتراجعوا إلى الخلف، بينما كان الجنود يبتعدون مغادرين القرية. وحينما اقترب الجمع من قره عمر وجدوه أسلم الروح، وقد قبض بكلتا يديه على المنجل، الذي استخدم في حرب واحدة، ولكن في عصرين مختلفين.

وفي صباح اليوم التالي، جاءت قوات كثيرة وحاصرت القرية، وسالوا عن الجثث والعمدة، ولكن القرويين كانوا قد دفنوا جسد قره عمر، وأجريت له مراسم دفن الشهيد بوضع ثيابه معه، فلم يسكتوا، بل أخرجوه من قبره، وحملوه إلى أنقره مع العمدة، ثم جاءت الأنباء بأنها شنقا - العمدة وجثة عمر - دون محاكمة، لأنه لا وقت للمحاكمة.

والآن لم يبق من الثياب الخمسة، سوى واحد ما زال الماء يسيل منه، وقد أطلق عليه «نبح الأمان» أو «نبح الأمل».

مقدمتهم العمدة وعمر وبعض الجيران.

- أنت لم تحسن التدبير أيضاً يا حافظ ... قالها العمدة في لهجة اتهام. وثني عليه صالح آغا قائلاً:

- نعم إنه كذلك، هل يقرأ الأذان نهاراً جهاراً يا بني؟

- في أي زمن نكون؟!

- لا لا يا عمي، لم يكن الأمر كذلك، قالها الحافظ يوسف، ثم شرع يروي الحادث: تعلمون أنني أؤذن منذ سنوات طوال، حتى أصبح الأذان جزءاً من كياني، فقلت لنفسي فلأضع يدي على أذني، وأسحب أذاناً حبيساً في صدري، أرفعه على هذا الجبل البلقع؛ جبل من جبال الله، في تلك الغابة المقفرة، كانت فرصة لأستمع برفع الأذان وأريح قلبي. وليتني لم أفعل، إذ كان رجال الشرطة العائدون من القرية، يمرون من الطريق بالقرب من مكاني، وضبطوني متلبساً بجريمتي، ماذا أفعل لقد كانت مصادفة، مجرد مصادفة.

- وهل هناك جرم أكبر من هذا

اليوم، قالها العمدة بشكل جاد.

وأردف آخر:

- تقصد في هذا العصر.

علينا الخذر، قالها عمر.

وظل أطفال القرية يتعلمون سراً في بيت عمر، ولكن ذات صباح كان عمر قد نهض من نومه مهموماً.. متضيقاً وكأن شيئاً جائم على صدره، ورغماً عنه بدأ الدرس، فقد كان الأطفال مقبلين على الدروس بشهية،

كانوا يلتمهون الكتب التهاماً، وكأنهم كانوا قد حملوا أمانة فهم يسرعون لأدائها. على أية حال، حدث ما كان يخشاه عمر، إذ ما لبث الأطفال أن قفزوا من النافذة الخلفية، عاندين إلى دورهم، وبينما هو يخفي الكتب أسفل الخزانة طرق الباب، فأسرع ليرى من الطارق، ولكن اشتدت الطرقات، وإذا بضربة تحطم القفل، ويفتح الباب على مصراعيه.

اندفع «جاويش» قصير القامة نحيف أصفر الوجه، عيناه تلمع في زرقة غادرة:

- هيا إلى الخارج، إلى الخارج، قالها وهو يدفع عمر أمامه.

- أنت تعطي الأطفال دروساً في الدين.

كان عمر على وشك أن يقول «لا» ولكنه تراجع. كانت أصوات الصراخ والبكاء والعيول تأتي من الخارج، وقد جاء «جاويش» ضخم الجثة، وقد كور طفلين ورفعهما تحت إبطه كأنها كيسان من الخيش. الطفلان ينتحبان، وجاء جنديان آخران وقد حملا من الداخل صرتين فآلقيا بمحتوياتهما على الأرض، ونثرهما يميناً، وشمالاً، وآخر أحضر الصندوق وكسر غطاءه، وقلبه على الأرض، فتناثرت عدة قطع من الملابس، ومن بينها المصاحف، وكتيبات تعليم اللغة العربية..